

## الدين والإصلاح في فكر عبد الرحمن الكواكبي

أ.د. أسعد السحمراني(\*)

### تمهيد:

استفاق العالم صبيحة ١١ أيلول - سبتمبر ٢٠٠١م على حدث هزّ الجميع خلال ساعتين على وقع عمل عنفي لم يكن متوقّعا، ولا داخلاً في حسابات الإستراتيجية العسكرية والأمنية لقادة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأن هذا الحدث العالمي الآثار يرتبط بشكل أو بآخر بالعامل الديني، أو هكذا أراد الأمريكي أن يفعل إرضاءً لسياسته العولمية التي كانت وما تزال ترى بأن الإسلام يشكل أحد أبرز السدود الكبرى في وجهها.

تأسيساً على هذا الوضع المستجد الذي ترك آثاراً على مستويات متعددة، يكون مفيداً أن نلتمس الخطى باتجاه الإصلاح من خلال فكر عبد الرحمن الكواكبي؛ أي مدى العلاقة بين الدين والإصلاح، ونقصد بذلك الفكر الديني الذي يعبر عنه بمصطلح (الفقه).

ومسوِّغ اختيار هذا العنوان هو أن الربع الأخير من القرن العشرين شهد يقظة للعامل الديني، واتجاهاً بارزاً إلى التدين في العالم كله، وعلى تنوع المعتقدات والديانات والمذاهب، وربما كان السبب ذلك الفراغ الروحي الذي ساد في ظل فكر مادي الأبعاد والمفاهيم، سواء ارتدى ثوب الرأسمالية الليبرالية أو الماركسية الشيوعية.

وهذا الاتجاه إلى حمى الدين يلوذ به الجميع أمر طبيعي، لأن التدين فطرة ملازمة لطبيعة الإنسان. فقد فطر الإنسان منذ الولادة على التسليم بوجود خالق، فبحث عن ذلك الخالق يتعرف إليه ويعبده؛ ولهذا لازم النزوع باتجاه الدين الشعوب، وكان عاملاً ثقافياً محركاً لمنجزات الحضارات منذ الكهوف حتى استخدام أرقى فنون العمارة واستفراغ جهود في تشييد بيوت العبادة أو في بناء العمارة الجنائزية التي كانت الأهرامات في مصر أحد أهم معالمها العمرانية الحضارية في التاريخ.

(\*) أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة بيروت العربية وكلية الإمام الأوزاعي في بيروت.

والأمة العربية هي ساحة الانطلاق للمشروع الإصلاحي لمفكرنا الكبير عبد الرحمن الكواكبي، وهي قلب العالم الإسلامي، وموقع قيادته، وموطن مقدساته وقوته بوجودها كافة، أمة كانت مهد الرسالات الخالدة وأرض وموطن النبوات وخاتمها الإسلام؛ وهذا الأخير هو الذي نسج خيوط وحدتها وحضارتها، وأمدّها بعوامل قوتها واستمرارها في مسيرتها التاريخية؛ لذلك لا يمكن لأي مشروع إصلاحي عربي أن يبصر النور أو أن يكون مقبولاً ومفيداً إن لم ينطلق من الموقع الديني -عموماً- ومن الموقع الإسلامي بشكل أخص.

والإسلام الذي برزت مفاعيله في حقبة يقظة التدين في الربع الأخير من هذا القرن، نهض الأميركي لمحاربته تحت مقولات: نهاية التاريخ وصدام الحضارات، ومن خلال توزيع تهمة الإرهاب والتطرف وتعميمها، وقد أعطى هذا الأميركي لنفسه حق التشريع والتصنيف وإعلان أشكال المواجهات؛ لكل هذا يكون طرح الإصلاح من الموقع الديني -عموماً- والإسلامي -خصوصاً- مفيداً مع مطلع هذا القرن الحادي والعشرين.

### الكواكبي بعد قرن مضى:

مضى قرن على وفاة المصلح عبد الرحمن الكواكبي، وفي هذا القرن تبدلت ظروف ووقائع، وكانت أحداث ومستجدات، ولكن الوقوف عند آراء ومواقف هذا العلم من أعلام الأمة العربية والإسلامية له إيجابيات وفوائد.

ولد الكواكبي وعاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للميلاد (١٨٥٥م-١٩٠٢م)، (١٢٧١هـ-١٣٢٠هـ). وقد شهد ما كانت تعانيه الأمة من ضعف وتفكك؛ وذلك بسبب ضعف الدولة التركية أمام الزحف الأوروبي الطامع بوراثتها، والذي كان يسميها: الرجل المريض. وعندما جاء الكواكبي كانت مناطق كثيرة قد اغتصبت، أو تم احتلالها، مثل: الجزائر وتونس وسواها.

كما أن انفتاحاً كان قد بدأ مع الغرب الأوروبي من خلال بعثات محمد علي -حاكم مصر وصاحب مشروع التحديث- إلى فرنسا برئاسة رفاعة الطهطاوي، أو من خلال حملة نابليون لغزو مصر أواخر القرن الثامن عشر، وما تلا ذلك من حركة لعدد من مفكري أوروبا باتجاه الأمة العربية والإسلامية، تحت عنوان الاستشراق، أو سفر بعض أبناء الأمة للتحصيل العلمي أو الاطلاع.

وكان قد بدأ ظهور مصلحين ورموز في الأمة منهم: محمد بن عبد الوهاب، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم كثير. وقد تنازع أهل الفكر ثلاثة تيارات كانت على الشكل الآتي:

١. تيار يرى الإصلاح في العودة إلى ما وصل إليه السلف، والعمل لتكرار التجربة دونما تعديل أو تبديل.

٢. تيار انبهر بالغرب، فدعا إلى الاستيراد والأخذ بما عند الأوروبي وصولاً إلى العلمانية والتتكر لحضارة الأمة وقيمها وخصائص شخصيتها الثقافية.

٣. تيار، وفي قلبه الكواكبي، رأى أن الإصلاح ينطلق من الأصالة، ومن خصائص شخصية الأمة، مع الاستفادة مما توصل إليه الغرب أو سواء في ميدان العلم والتكنولوجيا.

لقد حصل الكواكبي ثقافة واسعة ومتنوعة، وتقلب في مدينة حلب في مناصب عديدة إدارية ونقابية وقضائية، وإذا أضفنا إلى ذلك رحلاته وتجوله في أقطار عربية وإسلامية نكون أمام شخصية ارتبط عندها القول بالعمل، والنظرية بالتطبيق، والمعارف بالتجارب والخبرات، كل ذلك جعل مما كتبه الكواكبي، ولا سيما كتابيه الشهيرين: "أم القرى" و"طبائع الاستبداد"، أوراقاً للعمل الإصلاحي في كل كلمة وسطر منها.

قاوم الكواكبي الظلم والاستبداد، ومارس الإصلاح بأساليب مبتكرة، منها -مثلاً- أنه عندما تولى رئاسة مصلحة بيع الدخان (التبغ) قام بحصر المهريين، وكانوا سبعمائة، فأجرى لهم رواتب، ومنعهم من التهريب، فدرّ ذلك أرباحاً طائلة على الخزنة العامة.

ولكن ناصبه العداء من وجدوا فيه خطراً على مصالحهم الشخصية، وأبرزهم والي حلب يومها (عارف باشا)، ونقيب أشرفها أبو الهدى الصيادي الذي ولي هذا المنصب وهو في الأصل لعائلة الكواكبي.

ولا يفوتنا أن نذكر اهتمام الكواكبي بصناعة الرأي العام، وأهمية ذلك في مسيرة الإصلاح، ولهذه الغاية أولى عناية خاصة للصحافة، وأصدر صحيفتين، هما: "الشهباء" و"اعتدال"، ولما أوقفهما المستبدون عمد إلى نشر مقالات ومواقف في الصحف المصرية الآتية:

"المؤيد" و"العمران" و"القاهرة"، وفي "المنار" التي كان يصدرها رشيد رضا وفي "النجاح" و"المصباح" وهما لبنانيتان، إلى غير ذلك من الصحف والدوريات.

وإذا كان المصلح محتاجاً إلى معرفة أحوال البلاد التي ينوي النهوض بمهمة الإصلاح فيها فإن هذا العرض يطلعنا على حال الكواكبي:

"وجه همته -أخيراً- إلى التوسع في معرفة حال المسلمين؛ ليسعى في الإصلاح على بصيرة. فبعد اختباره التام لبلاد الدولة العلية (تركيا)؛ تركها وعربها وأكرادها وأرمنها، ثم اختباره لمصر ومعرفة حال السودان منها، ساح منذ سنتين في سواحل إفريقية الشرقية وسواحل آسيا الغربية. ثم أتم سياحته في العام الماضي فاختر بلاد العرب التي كانت موضع أمله أتم الاختبار، فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي، وما زال يوغل فيها حتى دخل في بلاد سورية واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل، وعرف استعدادهم الحربي والأدبي، وعرف حال البلاد الزراعية، وعرف كثيراً من معانها حتى أنه استحضر نموذجاً منها. وقد انتهى في رحلته الأخيرة إلى كراجي (من موانئ الهند)، وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية حملته بتوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقية الشرقية، فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختباراً سبق فيه الإفرنج"<sup>(١)</sup>.

وحين نقف مع الكواكبي بعد قرن مضى، لا يفوتنا أن نذكر بأن هذا القرن شهد تطورات عديدة ومحطات بارزات، هي: الحريان العالميتان واغتصاب فلسطين وزراعة جسم غريب في الأمة وقيام وسقوط الاتحاد السوفياتي السابق والحرب الباردة و بروز الولايات المتحدة الأمريكية على المسرح الدولي وسعيها حالياً للهيمنة والتسلط على العالم باسم العولة، كما يضاف إلى ذلك التطور العلمي والتقني، و بروز النمر الآسيوية والاهتمام بالدين، ووضع الإسلام والمسلمين في دائرة الضوء والسعي الأوروبي من خلال اتحادهم الجديد مع اليورو؛ كي يحتلوا مكاناً على الخريطة وما شهدته وتشهده الساحة العربية من تغيرات في النظام السياسي الرسمي، و على الصعيد الشعبي والمؤسسات الأهلية ... الخ.

(١) الطباخ الحلبي، محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٧، صححه وعلق عليه محمد كمال، حلب، دار القلم العربي، ط٢، سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٤٨٢.

المشهد العربي والإسلامي مع قرن جديد، وبعد قرن مضى على رحيل الكواكبي فيه ما فيه من تبدلات وتحولات مع بقاء قواسم مشتركة بين تلك الحقبة وما نعيشه اليوم، ولعل موضوع الإصلاح في الفكر الديني، وعرض الإسلام عالمياً بصفاته وسماحته واجبنا اليوم ويحظى باهتمامنا، كما كان الأمر عند المصلح عبد الرحمن الكواكبي، ولهذه الأسباب كان اختيار الموضوع.

### الواقع الديني من خلال الكواكبي:

إن الإسلام شكّل منذ انطلاقاته محور اهتمام الأمم والدول والشعوب بفعل ما أحدثه وما يحدثه في العالم كله، وحيثما انتشر كان محوراً في التغيير في المفاهيم، وضبط إلقيم بما يحقق كرامة الإنسان ويرفع الظلم عنه.

"فالإسلام كان -وما يزال- منبث الحرية، وهو الذي كسر قيود الجهل والفساد، وبسط التحرر والحرية منذ نزول الوحي وبدء الرسالة مع النبي محمد ﷺ، كما أنه ألغى كل تمييز بين إنسان وآخر إلا بالتقوى والفضيلة، فالناس عنده سواسية، وتحت رايته رفع كل إنسان رأسه، ونال نصيبه وحقه، فالإقناع والافتتاح هما الأساس، وخير الناس لكل الناس هو الهدف".<sup>(١)</sup>

هذا الإسلام العظيم وقع ضحية تقصير عظيم من أهل السلطان والعلم من المسلمين؛ مما دفع بالكواكبي إلى عرض ما يعانيه واقتراح الحلول له. والواقع الذي آلت إليه الأمور هو: "أن هذا الدين الحر السهل السمح الذي رفع الأسر والأغلال، وأباد الميزة والاستبداد قد ذهب ضحية لظلم أهله الجاهلين الذين أسلموه للمستبدين الذين اتخذوه بدورهم وسيلة لتفريق الأمة، وجعلوه آلة لأهوائهم. أما أهله الجهلة فقد فرّعوا وتوسعوا فيها، كما ذهبوا في التشديد والتشويش حداً صار يتوهم كل مسلم معه أنه لا يقوى على القيام بالواجبات والأوامر الدينية التي ألزم بها هؤلاء، ففتح هذا على الأمم باب التلّوم على النفس واعتقاد التقصير المطلق، وأن لا نجاة ولا مخرج، ولا إمكان لمحاسبة النفس"<sup>(٢)</sup>.

(١) السحمراني، أسعد، الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتها عند الكواكبي والإبراهيمي، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٥٤.

(٢) جدعان، فهمي، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، سنة ١٩٧٩م، ص ٢٤٩.

مثل هذا المنطق الذي عُرِفَ زمن الكواكبي ما يزال بعضهم يستخدمه اليوم، حيث نرى نفرًا من أهل الأمة يهونون جلد الذات وإلقاء اللوم -دائمًا- على الأفراد والجماعات، ويصح فيهم قول الشاعر:

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

وكلامنا لا نقصد منه عدم وجود مشكلات، ولكن الأمر يحتاج إلى درس وتمحيص، وبعد ذلك يأتي دور اقتراح الحلول المناسبة، واتخاذ الخطوات الملائمة، ومصلحتنا السيد عبدالرحمن الكواكبي كان على هذا المنهج؛ مما يدفع للقول والإقرار: "أنصح صفحة في تاريخ حياته قوة شعوره بفساد حال المسلمين، وتخصيص جزء كبير من حياته في تعرّف أحوالهم في جميع الأقطار، وتشخيص أمراضهم، وتلمّس العلاج لهم. فعكف على مطالعة تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم، وما كتبه الكتاب المحدثون في ذلك في الكتب والمجلات والجرائد، ودرس أحوال المسلمين في المملكة العثمانية، ثم رحلته إلى كثير من بلاد المسلمين"<sup>(١)</sup>.

يشرع الكواكبي بالحديث عن واقع المسلمين من خلال التأكيد على أمر هو أن التدين في فطرة كل إنسان، وواقع ما يعتقد الإنسان يحدد صلاحه وفساده.

يقول الكواكبي: "ثبت عندي ما يقرره الأخلاقيون من أنه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقاً، بل كل إنسان يدين بدين، إما صحيح، أو فاسد عن أصل صحيح، وإما باطل أو فاسد عن أصل باطل. والفاسدان يكون فسادهما إما بنقصان أو بزيادة أو بتخليط"<sup>(٢)</sup>.

إن الدين الصحيح تقوم العقيدة فيه على أساس توحيد الله تعالى، ففي ذلك المنطلق السليم باتجاه الدين الصحيح والتوحيد يحلّر الإنسان من العبودية لغير الله جل شأنه، ويؤسس لنفسه مفهوماً دينياً يصلح له شؤون دنياه، ويؤمن الفوز العظيم في الآخرة، ويبعده عن الغلو والتخليط، ويجعل منه مقاوماً للظلم والفساد.

لهذا كان -ولا يزال- المستبدون يخافون العلم الذي يؤسس على الإيمان بالله تعالى وطاعته. يبيّن الكواكبي ذلك قائلاً: "نعم يخافون من العلم، حتى من علم الناس معنى كلمة "لا

(١) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.، ص ٢٥١.

(٢) الكواكبي، عبدالرحمن، أم القرى، في الأعمال الكاملة للكواكبي، إعداد وتحقيق محمد جمال طحان، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، سنة ١٩٩٥م، ص ٢٨٧.

إله إلا الله"، ولماذا كانت أفضل الذكر، ولماذا بني عليها الإسلام. بني الإسلام، بل وكافة الأديان على "لا إله إلا الله"؛ ومعنى ذلك أنه لا يعبد حقاً سواه، أي سوى الصانع الأعظم، ومعنى العبادة التذلل والخضوع، فيكون معنى "لا إله إلا الله"، ولا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله، فهل والحالة هذه يناسب المستبدّين أن يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه؟ كلا ثم كلا ... ولهذا ما انتشر نور التوحيد في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر<sup>(١)</sup>.

من أجل ذلك كانت الدعوة في النص القرآني لتأسيس العلاقة بين المسلمين وأتباع رسالات السماء على هذا الأساس المتين: عقيدة التوحيد.

قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾<sup>(٢)</sup>. وهناك نص آخر يؤكد مخاطر الشرك، ويدعو إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وإعلان العبودية له سبحانه للنجاة من الظلم، فيه قوله تعالى: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾<sup>(٣)</sup>.

يلي ذلك مفهوم آخر خاطئ مفاده التسليم بالأمر الواقع، ودفع الناس باتجاه زهد مصطنع، وإعراض عن طلب المجد، وكل ذلك من المهلكات، والعوامل المحبطة للعزائم، وهي مما لا يتناسب مع جوهر الإسلام الذي يدعو أتباعه في الآية الكريمة: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾<sup>(٤)</sup>.

يقول الكواكبي في تشخيص هذه الحالة: "إني أرى أن منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية، مثل: العقيدة الجبرية التي من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنياً قدرية ظاهراً، ومثل: الحث على الزهد في الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق، وإماتة المطالب النفسية: كحب المجد والرياسة والتباعد عن الزينة والمفاخر، والإقدام

(١) عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم أسعد السحمراني، بيروت، دار النفائس، ط ٣، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٣) سورة لقمان، الآية ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

على عظام الأمور، وكالتغيب في أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت، وكفى بهذه الأصول مفترات، مخدرات، مثبتات، معطلات، لا يرتضيها عقل ولم يأت بها شرع<sup>(١)</sup>.

إن الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم جاؤوا هداة، ودعاة لتحرير الإنسان من الشرك والخضوع لغير الله أو القبول بما هو سائد، ودعوا إلى تحرير الإرادة، وإعلاء راية القيم والمحاسن الأخلاقية؛ لأن المستبد الظالم لا يخاف المواظبة على العبادات إن لم تقد صاحبها إلى مراتب السؤدد والمجد.

يعرض الكواكبي ذلك فيقول: "وقد سلك الأنبياء، عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من شقائها، مسلك الابتداء، أولاً: بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه؛ وذلك بتقوية حس الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله"<sup>(٢)</sup>. ويكمل في الباب نفسه ليقول في الاستبداد بأنه "مفسد للدين في أهم قسميه؛ أي الأخلاق. وأما العبادات منه فلا يمسه؛ لأنها تلائم في الأكثر، ولهذا تبقى الأديان، في الأمم المأسورة، عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات"<sup>(٣)</sup>.

إن عدداً من الأمور الجوهرية في الدين، ولا سيما تلك التي تهض بالمجتمع في طريق الفلاح والتقدم قد تم تركها جانباً من قبل بعضهم، وبالمقابل تعلقوا بالعبادات وبيعض الأمور الشكلية، أو ذهبوا باتجاه الخرافة.

يقول الكواكبي بلسان أحد أعضاء جمعية "أم القرى": "وذلك أن الأخلاف تركوا أشياء من أحكامه (الدين): كإعداد القوة بالعلم، والمال، والجهاد في الدين، والأمر بالمعروف، وإزالة المنكر، وإقامة الحدود، وإيتاء الزكاة،...وزاد فيه المتأخرون بدعاً وتقليدات وخرافات ليست منه"<sup>(٤)</sup>.

إن هذا الاتجاه المعطل للطاقت في الابتكار والتطوير والإبداع والترقي بالأمة أسهم فيه ضعف التشاور، وتبادل الرؤى والخبرات مع عدم أخذ الحكمة المستفادة من بعض الفرائض: كالحج وصلاة الجمعة، يضاف إلى ذلك زعم بعضهم بأن الاهتمام بالشأن العام سياسة واجتماعاً واقتصاداً ليس من الدين.

(١) الكواكبي، أم القرى، مصدر سابق، ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) الكواكبي، طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٤) الكواكبي، أم القرى، مصدر سابق، ص ٣١٠.



ويذهب الكواكبي في تحديد وتشخيص عوامل الفتور والضعف في الأمة إلى القول: "ويخيل لي أن سبب هذا الفتور، الذي أخلّ حتى في الدين هو فقد الاجتماعات والمفاوضات؛ وذلك أن المسلمين في القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج، وترك خطباؤهم ووعاظهم، خوفاً من أهل السياسة، التعرّض للشؤون العامة.

كما أن علماءهم صاروا يسترون جنبهم بجعلهم التحدث في الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يعني، وإن إتيان ذلك في الجوامع من اللغو الذي لا يجوز"<sup>(١)</sup>. شكل مثل هذا الفهم الخاطئ جنوحاً عن جادة الصواب، وكان ذلك شكلاً من أشكال التخدير لعقول عدد غير قليل من الناس، وما تزال مؤثرات كهذه حاضرة في فكر بعض المجموعات، وهذا داء وعامل تأخر وفتك بالمجتمع.

ساعد قبيل من المتاجرين بالدين ممن رغبوا بفئات موائد المستبد الظالم على توليد هذه الحالة، وبسبب أفكارهم المؤذية، ومفاهيمهم غير السليمة زرعوا بذور الشقاق بين الناس باسم الطائفية والمذهبية مستغلين تنوع وثراء الفقه بغير مقاصده، وفريق آخر شغلوا الناس بمناقشات في الفروع والجزئيات فكان الفرق في التجزيئية، ولا يزال مرض بعض قصيري النظر وضيق الأفق، وإذا بالإسلام دين الرحمة والسماحة والمنقذ من الظلم والاستبداد، والعدل هو مداره ونجده في مقاصده الأساسية، وقد "سطا عليه المستبدون، واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة، وتقسيم الأمة شيعاً، وجعلوه آلة لأهوائهم فضيعة، وضيّعوا أهله بالتفريغ والتوسيع، والتشديد والتشويش، وإدخال ما ليس منه"<sup>(٢)</sup>.

وقد أضاف بعض المستترين بالموقع العلمي أو باللباس والزي - كما هي الحال حتى يومنا هذا - نمطاً من المفاهيم لينالوا رضا السلطان المستبد والحاكم الظالم هو تشجيعه على القيادة بانفراد وفردية، وطرح مبدأ الشورى الذي يولد جواً لحياة ديمقراطية جانباً، وقد حملوا النصوص غير مقاصدها الشرعية، فكان ذلك من مسببات الإفساد ونشر الاستبداد، وتعطيل الدور التوحيدي للدين في لجم الاستبداد، وبالمفاهيم البالية أطلق هؤلاء العنان للظالم.

يقول الكواكبي: "ومن أهم دسائس المتعممين، أنهم ينفثون في صدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستفراد في الرأي، وإن كان مضرراً، ومعاداة الشورى، وإن كانت سنة،

(١) الكواكبي، أم القرى، مصدر سابق، ص ٣٠٦.

(٢) الكواكبي، طبائع الاستبداد، مصدر سابق، ص ٤٣.

والمحافظة على الحالة الجارية، وإن كانت سيئة. ويلقون عليهم بأن مشاركة الأمة في تدبير شؤونها، وإطلاق حرية الانتقاد لها، يخلّ بنفوذ الأمراء، ويخالف السياسة الشرعية<sup>(١)</sup>.

وقد تهادى هؤلاء المتسكعون على أبواب السلاطين في الإساءة من خلال تشويشهم، واستغلال ما لهم من سلطان على الناس باسم الدين، ومن ذلك بعض المتصوفة الذين وضعوا أتباعهم في مناخ من الغفلة والانشغال بما لا طائل تحته، وقسم فعل الأمر نفسه باسم العلم، حيث شغلوا الناس بالتوسع في الحرف والشكل على حساب المضمون والموقف والحكم.

وقد قال الكواكبي، وهو يعرض واقع هؤلاء الذين سماهم: (المدلسين): "إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه، وضيعوا أهله. وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ... فصار هؤلاء المتعاملون يدلّسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم، فيفسرون - مثلاً - البسملة أو الباء منها بسفر كبير، تفسيراً مملوءاً بلفظ لا معنى له، أو بحكم لا برهان عليه"<sup>(٢)</sup>.

إن قراءة الواقع من قبل الكواكبي أوصلته إلى خلاصة هي: أن الفساد اللاحق بالمفاهيم الدينية مع ستر المظالم السلطانية برداء ديني ما كان ليحصل لولا هؤلاء النفر من المدلسين الذين باعوا دينهم بدنياههم، وارتضوا لأنفسهم التدليس والنفاق والكسب غير المشروع أو التكسب باسم الدين، وقد عرض الكواكبي بتشخيص جيد حال هؤلاء ويصلح تشخيصه على أمثال هؤلاء المتاجرين بالدين حتى يومنا هذا، حيث قال:

"والحاصل أن بذلك وأمثاله نجح المدلسون فيما يقصدون، ولا سيما بدعوى فئة منهم الكرامة على الله والتصرف بالمقادير، وباستمالتهم العامة بالزهد الكاذب والورع الباطل والتقشف الشيطاني، وبتزيينهم لهم رسوماً تميل إليها النفوس الضعيفة الخاملة.... فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرم نفوذاً عظيماً، به أفسدوا كثيراً في الدين، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة، وبه حولوا كثيراً من الجوامع مجامع للطبالين.... وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم.... وعندي أن الداء الدفين: دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين، وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهال المتعممين"<sup>(٣)</sup>.

(١) الكواكبي، أم القرى، مصدر سابق، ص ٣٠١.

(٢) الكواكبي، أم القرى، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٦-٢٩٨.

لا أظن أن كلام الكواكبي محتاج إلى تحليل أو تفصيل فإنه دقيق في التعبير عن المعاناة، وهي معاناة في كل عصر، حيث يقوم بمقابل علماء الأمة الأفاضل والعلماء العاملين نقر من وعاظ السلاطين الذين يجعلون علمهم وزينهم ونفوذهم على العامة سلعة رخيصة على موائد المستبدين.

ويصل الأمر ببعض المدلسين إلى حد صياغة الفتوى -ولا سيما فيما يتعلق بالسياسة والحكم- وفق أهواء الحاكم المستبد ومصالحه؛ ليحظى هذا المفتي المفتن بـ"بقيمت" ودريهمات، قال الكواكبي: "إنني أرى أن السبب الأكبر للفتور هو تكبر الأمراء، وميلهم للعلماء والمتملقين المنافقين، الذين يتصاغرون لديهم، ويتذللون لهم، ويحرفون أحكام الدين ليوقفوها على أهوائهم، فماذا يرجى من علماء يشترتون بدينهم دنياهم، ويقبلون يد الأمير لتقبل العامة أيديهم؟"<sup>(١)</sup>.

وتتشدد الأزمة على الناس بسبب ردة الفعل التي تقوم عند فريق يقف على الطرف الآخر، وهذا واقع قام ويقوم في كل عصر، حيث نجد من يتهاون بأحكام الشريعة، ويفرط بها طلباً للمصالح الشخصية أو لاهتزاز في قناعاته، وهناك من يغالي ويمارس الإفراط فينفر الناس من الدين، وكلاهما على طريق نقيض، أو كلاهما قد حاد عن الإسلام الحق الذي يشكل أهله حالة الوسط والاعتدال، التزاماً بقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾<sup>(٢)</sup>.

يصور الكواكبي حالات الغلو قائلاً: "وهكذا بالتمادي عظم التشديد في الدين حتى صار إصراراً وأغلالاً، فكأننا لم نقبل ما من الله به علينا من التخفيف فوضع عنا ما كان على غيرنا من ثقل التكليف، قال تعالى شأنه وجلت حكمته"<sup>(٣)</sup>: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾<sup>(٤)</sup>.

وقد حذر الكواكبي من مخاطر الغلو والتشدد مقارناً مع حالات من غير المسلمين أثمرت المناخ السلبي نفسه. وقد أحسن صنعا في عرض الواقع الذي لا نزال نشهد بعض مظاهره في يومنا هذا.

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٠٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٣) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٢٥.

(٤) سورة الحج، الآية ٧٨.

قال: "إن هذه الحالة التي أنتم عليها من التشديد والتشويش في أمر الدين، هي أكبر أسباب انحطاط المسلمين بعد القرون الأولى في شؤون الحياة، كما انحط قبلهم الإسرائيليون بما شدّده وشوّشه عليهم أهل التلمود، وكما انحطت الأمم النصرانية لما كانت أرثوذكسية مغلظة أو كاثوليكية متشددة، يتحكم فيها البطارقة والقسيسون بما يشاؤون تحت اسم الدين"<sup>(١)</sup>.

ومما تحدث عنه الكواكبي في استعراض واقع الأمة، وما أنتجه موضوع استغلال الدين من قبل بعض المسؤولين أو المتولين لمهام في القيادة الدينية، وإن عقلية الطرف والفرقة التي حكمت بعضهم كانت من جملة الأمراض التي فتكت بالأمة؛ لأن كل فرقة كانت تزعم أنها الناجية وأنها على حق وأن سواها مبتدع وهالك.

يصور الكواكبي هذه المشكلة قائلاً: "فهذه الفرقة الكبرى يعتقد كل واحد منهم أنهم وحدهم أهل السنة والجماعة، وأن سواهم مبتدعون أو زائفون، فهل، والحالة هذه، يتوهم عاقل أن هذا التفرق والانشقاق رحمة لا نقمة، وسببه، وهو التوسع في الأحكام، سبب خير لا سبب شر؟ وكذلك اختلاف المجتهدين في كل فرقة من تلك الفرق، لا يتصور العقل أن يكون رحمة إلا بقيد حسن استعماله"<sup>(٢)</sup>.

إن هذا العرض لواقع حال مفهوم الدين وفقهه، والذي عاش الكواكبي في مناخه، واكتوى مجتمعه بنار الاستغلال لها من قبل وعاظ السلاطين، يختمه بمسألة الاجتهاد وتنوع الفقه من خلاله، وهو نعمة وثناء، وبين الاستغلال للدين والاستعلاء باسم الفرقة أو المذهب الذي يستخدمه بعضهم مدعياً أنه وجماعته الفرقة، الناجية وهذا نقمة وبلاء، وهو استغلال غير مسوغ للحديث: "ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجية منها واحدة". وكان أجمل ما قيل في التعليق على هذا الحديث هو أن الناجين هم كل أهل القبلة من المسلمين.

### الإصلاح في رحاب الدين:

إن الإصلاح عموماً، والنهوض بالأمة إلى مواقع التقدم والفلاح، وهو في رأس اهتمامات الكواكبي، ومنه الإصلاح الديني، وهو موضوع حديثنا يحتاج إلى مراعاة للواقع، ودراية بشؤونه، لأن مشاريع الإصلاح لا يتم نقلها كمتاع في محفظة محمولة. وقد كان "أحمد أمين"

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

مجيداً حينما صور هذه المهمة بقوله: "وكما أن لكل جيل مشاكله التي تتجم من نوع حياته، فلكل جيل مصلحوه الذين يتناسبون وزمانه؛ فلا بد أن يكون المصلح عارفاً لأمته، مطلعاً على خفاياها، واقفاً على أسرار نفسيتها، خبيراً بطرق توجيهها، يعرف كيف يخاطبها بلغتها، وكيف يمتلك زمامها، وكيف يكون موقع تقديرها"<sup>(١)</sup>.

وقد كان الكواكبي من هذا الصنف من المصلحين؛ لذلك نراه كان -ولا يزال- محل تقدير واهتمام وأن ما عرضه عن واقع الأمة أو ما اقترحه من أساليب ووسائل العلاج لا يزال واقعياً، ومفيداً في قسم كبير منه رغم مرور قرن على وفاته، يرحمه الله تعالى. ولم ينفرد الكواكبي فيما ذهب إليه بل شاركه مواقف وآراء مصلحون آخرون ممن عاشوا في تلك الحقبة من تاريخ الأمة.

ها هما المصلحان: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده يقولان في "العروة الوثقى": "فعلاج الأمة الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة ... ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وخالف نظام الوجود فينعكس عليه القصد"<sup>(٢)</sup>، ويكمل الأفغاني ومحمد عبده في أهمية الإصلاح الديني، فيقولان: "إن الأصول الدينية الحقبة المبرّاة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية"<sup>(٣)</sup>.

ويذهب الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري في تشخيص الداء إلى ما يقرب مما طرحه الكواكبي فيقول: "ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه، إما باستبداد أئمتهم وقادتهم، وما ذلك إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام

(١) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ٣٤٩.

(٢) السيد جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، العروة الوثقى، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٢، سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٢.

بواجبهم في مقاومة المستبدين، وتعليم الجاهلين، وبث روح الإسلام الإنساني السامي في المسلمين<sup>(١)</sup>.

ولو عرضنا ما نعيشه اليوم من افتراءات واتهامات يلصقها بعضهم بالإسلام إفراطاً وتفریطاً وكيداً ومكراً أو تهاوناً، نكون في حال التشخيص القرينة مما ذكروه، وكذلك في موقع الاقتراح لما قدموه من خطوات إصلاحية.

لذلك يكون مفيداً عرض الخطوات الإصلاحية في الفكر والعمل الديني التي طرحها الكواكبي وهي:

١. تأكيد قاعدة مهمة، هي أن الإسلام دين السماحة والرحمة للعالمين كافة، وبذلك بعث الله تعالى نبيه ﷺ، ولهذا يكون العلاج بعرض الإسلام، والعمل في فضائه على هذا الأساس، ولا يحق لأحد أن يسقط عقده أو مطامعه على هذا الدين السمع الحنيف. وقد صاغ موقفه شعراً، فقال:

سماحة الدين في فكر وفي عمل	خير من الإصر والأغلال والسقم
سماحة الدين من الله خالقكم	بها عليكم، دعوا الكفران بالنعيم
وحافظوا ملة بيضاء ساطعة	سمحاء جاء تكلمو بكل مفتهم <sup>(٢)</sup> .

إن واقعنا المعيش اليوم يحتاج إلى هذا الفهم والالتزام للرد على ما يوزعه الأعداء من صهاينة وسواهم، وعلى ما ينشره دعاة العولمة تحقيقاً للاستفراد الأمريكي بقيادة العالم، ولا رد عليهم أبلغ من هذه الأبيات حين يلتزم المسلمون ما فيها في عرض الإسلام والتصرف وفق أحكامه.

٢. يدعو الكواكبي إلى العمل المؤسسي المنظم بديلاً من الفردية والانفراد؛ لأن الجمعيات والمؤسسات عمرها أطول من عمر الأفراد، وتلتقي الطاقات وتتكاثر الجهود في رحابها، فتستطيع بذلك أن تتجز ما لا يستطيعه الفرد ولا يفي به عمره المحدود.

(١) الشيخ عبدالحميد بن باديس، حياته وآثاره، جمع ودراسة عماد الطالبي، ج ١، الجزائر، الشركة الجزائرية، ط ٣، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص ٣٧١.

(٢) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٨٩.

لهذا كان مشروعه الإصلاحى من خلال كتابه "أم القرى" عبارة عن جمعية فيها عدد من أهل الفكر والرأى متنوعى الاهتمامات والانتماءات، وفي هذا إشارة طيبة إلى مسألة مهمة هي: أن العمل المؤسسى لا يكون فيه الناس كحالة استتساخ عن بعضهم ولا يتماثلون وإنما يتكاملون.

إلا أن هذه الجمعية تحتاج إلى نظام وقوانين وشروط عضوية، وقد عرض ذلك الكواكبي، واخترنا منه في هذا الباب ما يلي: أضر فروع الجهل: الجهل بالدين. أما العضوية في الجمعية فمن شروطها:

١. الإسلامية، من أي مذهب كان من مذاهب أهل القبلة.

٢. القدرة على التكلم والكتابة باللغة العربية.

٣. لا تنتسب الجمعية إلى مذهب أو شيعية مخصوصة من مذاهب وشيع الإسلام مطلقاً<sup>(١)</sup>.

٣. وأما بشأن عمل العلماء والمتصوفة ومعهم الأتباع والمريدون فإنه يوجه في رحاب جمعية "أم القرى" إلى العمل وتوزيع مهام خدمة أهل المجتمع على بعضهم بدل الانشغال بالأمر الشكلى التي لا تحرك ساكناً ولا تسكّن متحركاً، فيقول: "التوسل لحمل أهل الطرائق على الرجوع إلى الأصول الملائمة للشرع والحكمة في الإرشاد وتربية المريدین، وتكليف كل فرقة منهم بوظيفة مخصوصة يخدمون بها الأمة الإسلامية من نحو اختصاص فرقة، كالقادرية مثلاً- بإعاشة الأيتام وتعليمهم، وأخرى بمواساة المساكين وأبناء السبيل، وجماعة بتمريض الفقراء والبائسين، وفئة بالتشويق إلى الصلاة، وغيرها بالتفجير عن المسكرات، ونحو ذلك من المقاصد الخيرية الشرعية فيكون عملهم هذا عوضاً عن العطل والتعطيل"<sup>(٢)</sup>.

والكواكبي الذي انتقد بعض المتصوفة في زمانه فإنه كان ينتقد أولئك المتخاذلين المستترين أو الذين حادوا عن التصوف الحق الذي كان عليه السلف، ولو أنهم التزموا خط الدعوة والعمل لإسعاد الناس، والجهد ضد المستعمر لما اتخذ منهم هذا الموقف. ويؤيد هذا ما قاله، وهو يعرض فيه واقع نشأة التصوف وإعلان تقديره لصوفية معاصرين، ولكنهم مجاهدون. يقول:

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٧٧ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

"قد كان التسك في المسلمين شيمة لأكثر الصحابة والتابعين، ثم إن التوسع في الدنيا قلل عدد المتسكين، فصار لأهله حرمة مخصوصة بين الناس. وصار بعض المتفرغين يقصدون نيل هذه الحرمة بالتلبس وبالتسك، وإلزام النفس بالتمرن عليه؛ وحيث كان من لوازم استحصال تلك الحرمة إظهار التقشف اتخذوا الصوف دثاراً واسم الفقر شعاراً، فغلب عليهم اسم الصوفية واسم الفقراء. ثم إن بعض العلماء من هؤلاء المعتزين بالتسك، أحبوا التميز بالرياسة أيضاً، فصاروا يدعون الناس إلى التسك، ويرشدونهم إلى طرائق التمرن عليه، ومن هنا جاء اسم الإرشاد واسم الطريق.

وحيث كانت إرادة الاعتزاز بالدين حسنة؛ لأن فيها إعزازاً لكلمة الله، فلا يؤخذ شيء على المرشدين الأولين، وعلى البعض النادر من المتأخرين، ولو في عهدنا هذا، كالسادات السنوسية في صحراء إفريقية"<sup>(١)</sup>.

٤. إن الكواكبي الذي حمل على العلماء المدلسين، والمتاجرين بفكرهم وقلمهم، العاملين لاسترضاء صاحب الجاه والمال لينالهم بعض ما في يده، وبذلك يكونون قد تلاعبوا بالمقاصد الشرعية وما فعلوا ذلك إلا لفساد في أخلاقهم.

فالعلم يحتاج إلى الإيمان والأخلاق الحميدة والتزام الفضائل، وإلا تحول فجوراً. وإذا كان التقى مع الجهل مؤذياً كذلك حال العلم مع الفجور، فقد ورد في الأثر: "أحذروا الفاجر من العلماء والجاهل من العابدين".

وقد اقترح الكواكبي في مشروعه الإصلاحية ضرورة الاعتناء بصقل الناشئة وتهذيبهم، وأشار إلى أن مدة الإعداد الأخلاقي أطول من تلك التي يحتاجها الإعداد العلمي، يقول: "إن مدة حضانة العلم عشرون عاماً فقط، ومدة حضانة الأخلاق أربعون سنة"<sup>(٢)</sup>.

ويحذر الكواكبي من الفرنجة، أي الأخذ بالوافد الثقلي، ولا سيما في باب القيم كما هي حال من ينسخون سلوكهم عن الثقافة الهابطة الوافدة باسم العولمة عبر مطاعم الوجبات السريعة ومنتجات هوليوود ومسلك جماعة "الكابوي". يقول بأن مثل هؤلاء الآخذين بسلوك وأخلاق يفرطون من خلاله بسلوك تابع من ثوابت الإيمان والدين لا خير فيهم.

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.



يقول: "أما الناشئة المتفرجة فلا خير فيهم لأنفسهم، فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم شيئاً .. تتجاذبهم الأهواء كيف شاءت، والحاصل أن شؤون الناشئة المتفرجة لا تخرج من تذبذب وتلون ونفاق يجمعها وصف (لاخلاق لهم)" (١).

هكذا إذن يطلب الكواكبي ببث القيم الأخلاقية وحماية الجيل من أنماط السلوك التفريري أو المتأمر، كما حالنا اليوم، وهذا يقود إلى ضرورة اقتران التعليم بالتربية، ولهذا الحديث شجون وشؤون ليس هنا - بحال - بحثها.

٥. الوحدة الوطنية والعيش الكريم بين المسلمين وغير المسلمين أمر مهم، وبالتالي فإذا كان الانقسام والتنازع والفرقة بين المسلمين على أساس مذهبي مرفوض، فكذلك الأمر في الشأن الوطني؛ لأن المستبد والمستعمر وكل عدو طامع بالأمة يحاول تفتيت صفوفها والتفرقة بين أبنائها كي يتمكن منها.

يقول الكواكبي: "تعتني الجمعية (أم القرى) في حمل العلماء وجمعيات الاحتساب على تعليم الأمة ما يجب عليها شرعاً من المجاملة في المعاملة مع غير المسلمين، وما تقتضيه الإنسانية والمزايا الإسلامية من حسن معاشرتهم ومقابلة معروفهم بخير منه، ورعاية الذمة والتأمين والمساواة في الحقوق وتجنب التعصب الديني أو الجنسي (القومي) بغير حق" (٢).

إن هذا الموقف نابع من جوهر الإسلام الحنيف الذي يقوم على قبول الآخر واحترام حقوقه في كل الأشياء، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (٣).

ولهذا يخاطب الكواكبي أهل وطنه وأمتة العربية قائلاً: "دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء ألا وهي: فلتحيا الأمة، فلتحيا الوطن، فلتحيا طلقاء أعزاء" (٤).

ما دعا إليه الكواكبي له سند في السنة، حيث إن رسول الله ﷺ بعد الهجرة أقر صيغة "الصحيفة" مع أهل المدينة وهم مشركون وأهل كتاب ومسلمون.

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٤.

(٣) سورة الممتحنة، الآية ٨.

(٤) الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص ١٢٢.

والمواجهة تكون فقط للعدو المغتصب والظالم المعتدي؛ لقوله تعالى: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾<sup>(١)</sup>.

لكن هذه المواجهة تكون بوحدة الأمة واتحاد طاقاتها، وعلى هذا الأساس يوجه نداءه إلى العرب: "يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلّكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد، وأنتم المتتبعون السابقون، فهذه أمم، هداها الظلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الدين، والوفاق الجنسي (القومي) دون المذهبي"<sup>(٢)</sup>.

إن نداء الكواكبي لا يزال مجدياً اليوم من أجل جمع الكلمة وتوحيد الصفوف لوأد مشاريع الفتن ومؤامرات الإعداء في النيل من الوحدة الوطنية في أمتنا، كما أن الوحدة ضرورية لتحقيق النصر والتحرير، وصناعة التقدم، والنهوض بالدور الحضاري.

٦. ويرى الكواكبي أن الإصلاح في قسميه: الديني والسياسي واحد لا ينفصل، ولا يكون إصلاح ديني بدون إصلاح سياسي، وينطلق بذلك من الحديث النبوي: "أثنان إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا فسدت هما: العلماء والأمراء". أي القادة الدينيون والقادة السياسيون.

وإلى هذا يوجه قائلاً: "ويحكمون بأن بين الاستبدادين السياسي والديني مقارنة لا تتفك، متى وجد أحدهما في أمة جرّ الآخر إليه، أو متى زال زال رفيقه، وإن ضعف أحدهما ضعف الثاني وإن صلح أحدهما صلح الثاني.

وشواهد ذلك كثيرة جداً، لا يخلو منها زمان أو مكان، وكلها تبرهن على أن الدين أقوى تأثيراً من السياسة.

.... والحاصل أن كل المدققين السياسيين يرون أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين، ويعدّون إصلاح الدين أسهل منالاً، وأقوى وأقرب طريقاً للإصلاح السياسي"<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان الإصلاح الديني يؤسس للإصلاح السياسي فإن ذلك يستلزم العالم القوي الأمين، والناصح على قاعدة: "الدين النصيحة". والخطر كل الخطر من العلماء المنافقين

(١) سورة المتحنة، الآية ٩.

(٢) الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص ١٢١.

(٣) الكواكبي، طبائع الاستبداد، ص ٣٨.

المدلسين، الذين يسعون وراء مطالب خاصة على حساب الدين والأمة، ولهذا يرى الكواكبي أن العلاج يكون بمحاربة هؤلاء، وتوجيه الناس إلى السير خلف العلماء العاملين، ويقول: "فلا شك أن في هذا الزمان، أفضل الجهاد في الله الحطّ من قدر العلماء المنافقين عند العامة، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين"<sup>(١)</sup>.

هذه بعض من الصور الواقعية حسب تشخيص الكواكبي لما عاصره، وهذه بعض المقترحات كوسائل علاج ووسائل نجاة، وأظن أن أبناء عصرنا هذا يجدون فيها الكثير مما يناسب واقعنا اليوم رغم مضي قرن على رحيل الكواكبي -رحمه الله تعالى- من دنيانا. وإذا كنا نعود إلى البحث في شأيا فكره ومشروعه الإصلاحية فليس ذلك إلا من باب ما ورد في الأثر عند العرب: "الويل لأمة لا تعرف قيمة رجالها، ولا فضل علمائها، ولا تحفظ دماء شهدائها".

(١) الكواكبي، أم القرى، ص ٣٠٨.